التواصل الثقافي: المفاهيم، والمبادئ، والأفكار

مدثر عبد الرحيم*

الجذور المادية والروحية لتنوع الثقافات والحضارات الإنسانية:

التواصل الثقافي بين الشعوب والجماعات البشرية ظاهرة إنسانية طبيعية تعود إلى أقدم العصور والأزمان؛ إذ لا تعرف أية حقبة من حقب التاريخ، أو ما قبل التاريخ، عاش فيها الإنسان- في أي صقع من أصقاع الأرض- بمعزل عن أخيه الإنسان. بل إنه قد كان دوماً على صلة مع غيره من البشر، أفراداً وجماعات، وإن تباينت بطبيعة الحال درجات الاتصال وتنوعت صوره وأشكاله في سائر الظروف والأحيان.

وإذا صحّ هذا القول فيما يتصل بحياة المجتمعات البشرية في سائر أرجاء الكرة الأرضية عبر الحقب والأزمان، فلا شك أنه يصحّ وينطبق على القارة الإفريقية على وجه الخصوص: وهي- بإجماع جمهور الباحثين المختصين - مهد الإنسانية الأول: فيها نشأ الإنسان أول مرة، ومنها انتشر في شتى أنحاء المعمورة: برّها وبحرها، وسهولها وجبالها، وصحاريها وأدغالها.[1]

---

* أستاذ الفكر السياسي بالمعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية – الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

[1] من أجود المداخل الشاملة لتاريخ إفريقيا الكتاب الذي أصدرته، في ثمان مجلدات، منظمة اليونيسكو أثناء ثمانينات القرن العشرين بعنوان *The General History of Africa*، ثم الكتاب المماثل الذي أصدرته دار كيمبردج بين عامي 1975 و1986، في ثمان مجلدات أيضًا، بعنوان *Cambridge History of Africa* وذلك بتحرير الأستاذين Fage وOliver.

وكما أشار المسعودي ومونتيسكيو وغيرهما من المفكرين، شرقيين وغربيين، قدماء ومحدثين، فقد أدّى تنوع البيئات التي استقرت فيها مختلف الجماعات البشرية إلى تنوع أساليب المعاش بينها: في المسكن، والمطعم، والملبس، والمركب وما إلى ذلك من ضرورات الحياة وأسباب المعاش. فتباينت لذلك -مثلاً- أنواع المساكن بين خيام تـتخذ من الأصواف والأوبار والجلود، وأكواخ تبنى من الخوص والقصب والأعشاب، وبيوت تُشيَّد من اللَّبِن والأحجار والأخشاب، وأخرى تقام - في المناطق القطبية- من كُتَل الثلج والجليد.

وعلى الشاكلة ذاتها اختلفت أصناف الأطعمة بين أنواع، قوامها - من النشويات - الأرز، أو القمح، أو الذرة، أو الكسافا، والبطاطا، وما شابهها من أنواع الجذور. وغني عن القول أن كل صنف من تلكم الأطعمة يتطلب أساليب مختلفة -ليس في طرق الطهو والطبخ فقط - بل أيضاً، وقبل ذلك، في فنون الزراعة والرّي ومراعاة تقلبات الطقس والمناخ، كما في إعداد التربة وأدوات الفلاحة والحصد والاختزان.

وتتسع دائرة التنوع والاختلاف في أساليب المعاش فيما يتصل بحاجة الإنسان إلى البروتينات بين شعوب تستسيغ أنواعًا شتى من المأكولات تشمل لحوم القردة والكلاب والثعابين والجرذان، بينما تنحصر اخـتيارات غيرها في دائرة ضيقة لا تكاد تتجاوز أصناف الأسماك والطيور والحيتان، فيما تضطر ظروف البيئة مجتمعات بشرية أخرى للسعي لسد حاجـتها من البروتينات بتصيّد الجراد، والصراصير، والأرَضَة، والديدان.

وما يقال عن تأثير البيئة في تنوع أصناف المساكن والأطعمة بين مختلف الشعوب والمجتمعات يصح وينطبق أيضاً على غيرها من ضرورات المعاش بما في ذلك أنواع الملابس والمركوبات. فالجاموسة في مناطق واسعة من إفريقيا وحش مخوف مهيب، ولكنها في كثير من أنحاء آسيا حيوان أليف يركب ويحلب. هذا بينما وجد العرب الذين استقروا في كردفان من أقاليم السودان أن أراضيها الطينية لا تصلح للجمال التي كانوا قد ألفوها من قبل فهجروها وركبوا بدلاً عنها الأبقار والثيران.

ومجمل القول في هذا الجانب من الموضوع هو أن أساليب الحياة وأنماط السلوك الإنسانية محكومة، إلى حد كبير، بطبيعة الأوضاع البيئية التي استوطنتها الشعوب والمجتمعات في مختلف أنحاء الأرض، كما أنها تتنوّع وتتشكل متأثّرة، لدرجات متفاوتة، بتنوع تلكم الأحوال والبيئات.

ولكن الإنسان -كما جاء في الإنجيل على لسان السيد المسيح عليه السلام- لا يحيا بالخبز وحده،[1] كما أن أساليب حياته وأنماط سلوكه لا تصوغها ظروف الزمان والمكان التي يوجد فيها بصوره آلية أو غريزية لا حول له حيالها ولا اختيار، شأن غيره من المخلوقات حية كانت أو من الجمادات وما سواها من الكائنات.

وذلك لأن الإنسان - بحكم ما جُبل عليه وتميّز به من وعيٍ بذاته، وقدرةٍ على النظر والتفكير المجرَّد، فضلاً عما فُطِرَ عليه من تطلُّع وجداني عميق لقيم خلقية وروحية كالخير والحق والعدل والجمال - يطمح للسعي مختاراً، قدر طاقته وسعة جهده، للتسامي بنفسه وتحقيق ذاته بتمثل القيم الخلقية والروحية والعيش على هداها في سائر مجالات حياته. ثم إن الإنسان - بحكم فطرته أيضاً - متشوق أبداً لسبر أغوار الكون، متطلّع دوماً لاستجلاء معنى الحياة، حريص أشد الحرص على معرفة مكانه ومغزى حياته في الوجود. ولا شك أن ما يهديه إليه فكره ويطمئن إليه وجدانه من أجوبة على تلكم المسائل الآسرة الخالدة مما تنعكس آثاره بصورة مباشرة على الكيفية التي بها يصوغ أنماط فكره وسلوكه في أبواب الحياة كافة: الفردية والجماعية، ابتداءً من أول ساعة يوضع فيها وليداً (أو قبل تسعة أشهر من ذلك الموعد كما عند الهنادكة)، ثم ما يتبع الميلاد من مراحل الحياة وأطوارها المتعاقبة إلى حين الممات، بما في ذلك كل ما يعتور حياة الإنسان من ضروب الشدّة والرخاء، وجميع ما يحتاج لتعلمه أو اكتسابه من أساليب التعامل في مختلف الظروف والأحوال: مع الأنداد والأقران،

---

[1] إنجيل متّى:4.4. والعبارة الكاملة هي: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان".

من الذكور والإناث، والكبار والصغار، والأباعد والأقارب، ثم مع الأجانب والأغراب في حالات السلم والاحتراب.

هذا وقد كان من الطبيعي- والحال على ما سلف ذكره - أن اقترنت العقائد والديانات اقتراناً وثيقاً عميقاً بالثقافات والحضارات في تاريخ كل الأمم والشعوب الشرقية والغربية (من لدن قدماء المصريين ونظرائهم في بلاد الرافدين إلى اليونان والرومان ثم الفرس والهند والصين واليابان)، كما ارتبطت بها في رؤى كبار المفكّرين والمؤرّخين، ليس فقط عند العرب والمسلمين (وعلى رأسهم في هذا الباب شيخ المبدعين عبد الرحمن بن خلدون) بل لدى الغربيين أيضاً، ومن أبرزهم منذ مطالع القرن العشرين: أوزوالد شبنجلر، وأرنولد توينبي، وفيرناند بروديل ثم، ومؤخراً، ساموبل هنـــتـــجتون. وليس بغائب عن الأذهان تقسيمه كبريات حضارات العالم القائمة اليوم إلى ست (هي الصينية، واليابانية، والهندية، والإسلامية، والمسيحية الأرثوذكسية، والمسيحية الغربية) تشكّل العقائد الدينية الشائعة في كل منها- كما يقول - عنصراً أساسياً فيها مميّزاً لها عمّا سواها.

وهنا يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لننظر - ولو إيجازاً - في ماهية كل من الثقافة والحضارة، ثم في طبيعة الصلة أو العلاقة بينهما.

الثقافة والحضارة: ماهيتهما والصلة بينهما

ولعلّ من أيسر المداخل إلى هذا الشق من الموضوع الإشارة إلى أن جمهور المفكرين الألمان (ومن بينهم هيردر وكارل ماركس) قد درجوا منذ منتصف القرن التاسع عشر، على التمييز بين الثقافة والحضارة تمييزاً حاداً يقوم على استعمالهم كلمة "حضارة" للدلالة على الأبعاد المادية في حياة الإنسان الاجتماعية (كالطرق، والمباني، والقنوات، والرافعات، وما إلى ذلك من آلات وأدوات)، بينما أوقفوا كلمة "ثقافة" على شؤون الفكر والدين والقيم الخلقية والفنون.[1]

---

[1] انظر كتاب فرناند برودال Fernand Braudel: في التاريخ (*On History*) المنشور في كل من لندن وشيكاغو عام 1980، ص 181-182.

ولكن هذا النهج في تحديد معنى العبارتين لم يجد رواجاً أو قبولاً عند غير الألمان من الباحثين والمفكرين، وذلك لجملة أسباب لعل من أبرزها التناقض الواضح بين المعنى الذى خُصّت به "الحضارة" في هذا التعريف وما يتبادر للأذهان بداهةً من معاني الكلمة وأصدائها في سائر اللغات واللهجات، ثم لما ينطوى عليه هذا التعريف من فصل اعتباطي حاد بين المقومات المادية والفكرية في الثقافة والحضارة كلتيهما.

على أن رفض الناقدين للنهج الذى اتخذه ذلك الجيل من نظرائهم الألمان في تعريف الحضارة والثقافة لم يستتبع انعقاد إجماع بينهم على نهج بديل في فهم أيٍّ من ذينك المصطلحين المهمين. ولعلّ من أول ما يُستدل به على ذلك أن كرويبر وكلوكهون – وهما من كبار الأنثروبولوجيين الأمريكيين – قد أحصيا مائة وواحداً وستين تعريفاً مختلفاً لعبارة ثقافة الأثيرة لديهم ولدى زملائهم من علماء الأجناس والاجتماعيين، أمريكيين وغير أمريكيين.[1]

يضاف إلى ذلك أن عدداً من كبار المفكرين وفلاسفة التاريخ المعاصرين (وعلى رأسهم أرنولد توينبي نفسه) قد أحجموا عن القيام بأي محاولة لصياغة تعريف رصين لعبارة "حضارة" التي طالما جعلوها مدار أبحاثهم المستفيضة الممتعة. هذا بينما أعلن فيرناند بروديل (حامل لواء المؤرخين الغربيين المعاصرين بعد توينبي، والمفضَّل نهجه عند كثير من النقاد على نهج سلفه العظيم) أنه قد قرر المضي في استعمال المصطلحين موضع النظر كما لو كانا رديفين متطابقين تاركاً للقراء مهمة استجلاء أية فروق في استعماله العبارتين بتدقيق النظر في السياق الذي يرد فيه المصطلحان، مفترقين أو مقترنين، في هذا الجزء أو ذاك من أبحاثه ودراساته العديدة.[2]

---

1 كتاب بروديل المذكور أعلاه، ص 183.

2 المصدر نفسه، ص 185.

ومهما يكن من أمر، فلا خلاف على أن هناك سمات مشتركة بين الثقافة والحضارة كيفما كان تعريفهما. ومن أهم تلكم السمات المشتركة: اشتمال كل من الثقافة والحضارة على مجموعة من المعتقدات الدينية والقيم الأخلاقية تنبثق عنها وترتبط بها مجموعة من النظم والمؤسسات وأنماط السلوك تطبع حياة المنضوين في إطار الثقافة أو الحضارة المعنية من الأفراد والجماعات بطابع خاص بهم، وتصوغ أذواقهم ومناهج تفكيرهم بحيث يحتكمون إليها، ويسترشدون بها في تنظيم سائر أمورهم ومناشطهم الشخصية والأسرية، وفي تسيير حياتهم الجماعية في مختلف جوانبها: الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والفنية – في حالتي الحرب والسلم جميعاً – مستعينين في كل ذلك بمجموعة من الرموز والمراسم والطقوس. وثمة سمة ثالثة تشترك فيها الثقافات والحضارات، وهي تميّزُ كلٍّ منهما – عادةً – بدرجة عالية من الاستقرار والاستمرارية في العيش وفق ما سبقت إليه الإشارة من القيم الخلقية والمعتقدات الدينية، وأنماط السلوك الفردية والجماعية المعتمدة فيها لاسيما في المناطق الريفية أو البدوية منها مقارنة بالمدن والمراكز الحضرية.

على أن هناك فرقاً مهمًّا تتميز به الحضارات على الثقافات، وهو أنها أوسع انتشاراً على سطح الأرض برّها وبحرها، حتى إن الحضارة الواحدة منها لتشمل عدداً من الثقافات والدول والقوميات في إطارها، كما هو الحال، مثلاً، في الحضارتين الإسلامية والغربية.

وكما تتداح الحضارات وتتمدد عبر المكان، فإنها تنبسط كذلك وتتمدد عبر الزمان، فيتجاوز عمرُها عُمُرَ ما قد ينشأ في ثناياها أو خارج إطارها من ثقافات بقرون عديدة وآماد طويلة تبلغ الحضارة المعنية أثناءها أوج عنفوانها فتستفحل وتنضج، ثم تكتهل وتضعف، وقد تستفيق بعد ضعف فتنهض وتتجدد، أو قد تدهمها الشيخوخة ويدركها الهرم فتتصدع وتنهار ثم تندثر، مخلية بذلك حيّزاً متسعاً في الزمان والمكان تحتله سواها من الحضارات المتتالية حلقاتها منذ نحو ستين قرناً أو تزيد.

هذا وقد قدّر أرنولد توينبي عدد الحضارات التي تعاقبت على هذا النحو منذ فجر التاريخ في تلكم الأزمان بواحدة وعشرين أو اثنتين وعشرين دَرَسَتْ كلها إلا خمساً هي، كما سمّاها: حضارة الشرق الأقصى، والحضارة الهندية، والحضارة المسيحية الأرثوذكسية، والحضارة الإسلامية، ثم الحضارة الغربية.

وتفضي بنا الإشارة لأمر التجدد في الحضارات إلى النظر في واحدة من أهم السمات التي تتسم بها الحضارات والثقافات جميعاً: وهي أنها - خلافاً لما قد يبدو من ظاهر انعزالها عن نظيراتها في بعض المراحل والأحيان، أو ما قد يُتَوهمّ من بادئ سكونها واستقرارها عبر الحقب والأزمان - لا تكاد، في واقع الأمر، تتوقف عن التفاعل مع غيرها من الحضارات والثقافات، كما لا يكاد ينقطع ما يجري بداخل كل منها من تلاقح وتفاعل بين العناصر التي تغذوها وتتكون منها؛ وذلك لأن التواصل بين البشر، كما جاء في مستهل هذه الصفحات، ظاهرة إنسانية راسخة في طبيعة الإنسان، أصيلة في تاريخه وتراثه، منذ أقدم العصور والأزمان.

ولعلّ من أوضح الأمثلة الدالّة على ذلك والتي يمكن الاستئناس بذكرها - ولو إيجازاً - في هذا المقام ثلاث هي - ولا شك - من أعظم الحضارات والثقافات وأبعدها أثراً في تاريخ الإنسانية عامة، كما في حياة البشر القائمة في مشارق الأرض ومغاربها اليوم.

أولاها وأسبقها حضارة اليونان الأقدمين، وقد استمدت كثيراً من مقوّماتها الأساسية في الفكر والعلوم والفنون من سابقاتها التي كانت قد ازدهرت في مصر القديمة، وفي بلاد الرافدين، ثم صهرتها في بوتقة عبقريتها الخلاّقة المتميّزة التي رفدت فيما بعد كلاً من الحضارتين الإسلامية والغربية رفداً غزيراً مخصبا.[1]

---

[1] من أجود المداخل الوجيزة في هذا الباب كتيّب العلاّمة جورج سارتون George Sarton: *The Incubation of Western Culture in the Middle East*, Washington, 1951 and 1952 ثم كتابه الضخم (في خمس مجلدات كبار) الذي سماه **مقدمة في تاريخ العلم**: *An Introduction to the History of Science*.

أما **الثانية** فهي الحضارة الإسلامية التي تنـــزّلت أولى آيات كتابها آمرة بالقراءة، مشيدة بالقلم، وحثّ رسولها عليه السلام على طلب العلم من المهد إلى اللحد ولو في الصين، مؤكداً أن التفكير فريضة وعبادة، وأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها، وأن للمجتهد – وإن أخطأ– أجراً ثابتاً عند رب العالمين. ومن ثم فقد بذل المسلمون إبّان عهود المجد والإبداع في تاريخهم جهوداً جبّارة– ليس فقط في تقعيد علومهم الأساسية المتعلقة بعلوم القرآن والعربية والسنة والحديث والتاريخ وأصول الدين والفقه والتعمّق فيها وفيما تفرّع عنها من تخصصات – بل أيضاً في الوقوف، عن طريق الترجمة الناشطة منذ عهد المنصور،[1] على ما لدى الإغريق والفرس والهند والصين من العلوم والفنون والفلسفات والمعتقدات[2] ودراستها دراسة معمّقة تمّكنوا بها من الإبداع والتفوق فيها والإضافة الثرة إليها.[3] وسعياً لتحقيق كل ذلك تبارى خلفاؤهم وأمراؤهم وسائر أولي الفضل والهمة منهم (رجالاً ونساءً) في إكرام العلماء والمبدعين في مختلف العلوم والفنون، من المسلمين وغير المسلمين، ومن شتى الأجناس والأعراق، ليس فقط بـــتـــبجيلهم واحترامهم وإغداق الأموال الوفيرة عليهم، بل أيضاً، وأهم من ذلك، بإقامة الجامعات المتينة، والمكتبات الغنية، والمراصد البديعة، والمستشفيات المزودة، ومراكز البحث العامة والمتخصّصة دعماً لهم وإسهاماً في تـــثمير جهودهم. ولم يكن ذلك فقط في كبريات

---

1 تقرن كثير من الكتب المدرسية عهد الترجمة بعصر المأمون. وهذا خطأ شائع أبان فيه وجه الحقيقة عدد من الدراسين المتخصصين. انظر مثلاً كتاب Dimitri Gutas: *Greek Thought, Arabic Culture* الذي صدر في كل من لندن ونيويورك عام 1998.

2 هذه إشارة لكتاب البيروني العظيم: **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة.**

3 انظر مثلاً كتاب Franz Rosenthal: *The Classical Heritage in Islam* الذي صدر في لندن عام 1965، ثم كتاب P. E. Peters: *Aristotle and the Arabs* الذي صدر في كل من لندن ونيويورك عام 1968، ثم الكتاب الجامع الذي حرره الأستاذان سيد حسين نصر وأوليفر ليمان بعنوان *History of Islamic Philosophy* وقد صدر منه مجلدان في كل من لندن ونيويورك عام 1996، وكتاب إسماعيل الفاروقي ولمياء الفاروقي: *The Cultural Atlas of Islam* الذي صدر في كل من لندن ونيويورك عام 1986.

العواصم والمدن، مثل بغداد والقاهرة وقرطبة، بل في شتى أنحاء العالم الإسلامي الشرقية منها والغربية كما كان الحال، مثلاً، في بخارى وسمرقند وبلخ في أواسط آسيا، وفي فاس ومراكش وتمبكتو وسوكوتو في مغارب العالم الإسلامي وتخومه الإفريقية.[1]

وأما **الثالثة** فهي الحضارة الأوربية الحديثة التي ملأت الدنيا، وشغلت الناس منذ عهد النهضة والكشوفات الأوربية، وما تبعها من بسط الدول البحرية الغربية نفوذها وهيمنـــتها على مساحات شاسعة من أنحاء العالم وشعوبه، بما في ذلك الأقطار العربية والإفريقية كافة. ومعلوم أن هذه الحضارة الغربية الحديثة – شأنها شأن سائر الحضارات التي سبقتها – قد انطلقت، بادئ أمرها، من تمثل ما أبدعه من ساروا في مضمار الحضارة قبلها، وعلى رأسهم المسلمون. فقد دأبت أجيال متعاقبة من الدارسين الأوربيين عندئذ على تعلم لغتهم وآدابهم، واغترفوا بذلك من معين علومهم وفنونهم ومقوّمات حضارتهم كافة: بما في ذلك الفلك والرياضيات، والهندسة، والمعمار، والطب، والبيطرة، والزراع،ة وعلوم البحار، والشعر، والموسيقى، وأساليب التأنق في اللبس والزينة، والأكل والحديث، إلى جانب الفلسفة والمنطق والإلهيات.

وكما هو معلوم مشهور فقد كانت أهم المراكز التي تتلمذ فيها رواد النهضة الأوروبيون على أساتذتهم المسلمين ثلاثة، وهي الأندلس، وصقلية ثم – أثناء الحروب الصليبية والهدنات التي تخلّلتها – بلاد الشام وفلسطين.[2]

---

[1] من أعون الدراسات على النظر في هذا الجانب من الموضوع مجموعة البحوث التي أصدرها، في أربع مجلدات، المجمع الملكي في الأردن لبحوث الحضارة الإسلامية **بعنوان التربية العربية الإسلامية: المؤسَّسات والممارسات** وذلك في عمان، عام 1989،ثم كتاب جورج مقدسي George Makdisi الذي نشرته مطبعة جامعة أدنبره عام 1990 بعنوان *The Rise of Humanism in Classical Islam and The Christian West with Special Reference to Scholasticism.*

[2] عولجت جوانب مختلفة من هذا الموضوع الثر في عدد من الدراسات التي صدرت بالعربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية والإيطالية لعلّ من أيسرها تناولاً كتاب W. M. Watt: *The Influence of Islam on Medieval Europe*, Edinburgh, 1987; Aziz Ahmad: *A History of Islamic Sicily*, Edinburgh, 1978.

هذا وقد كان استلهام تراث اليونان الأقدمين من أهم بواعث النهضة الأوربية والأسس التي بنيت عليها، على أن تلك النهضة وروادها الأولين إنما استقوا علمهم بذلك التراث اليوناني العتيق أيضاً عن طريق أساتذتهم المسلمين: وعلى رأسهم ابن رشد الحفيد صاحب "تهافت التهافت" و"بداية المجتهد" و"فصل المقال"، لا سيما فيما يتصل بشروحه المهمة وتعليقاته الجليلة على أعمال أرسطو وفلسفته.[1]

خلاصة القول في هذا الجانب من الموضوع هي أن التواصل والتلاقح بين الحضارات والثقافات – متتالية كانت عبر الحقب والأزمان، أو متعاصرة متجاورة في الزمان والمكان– سِمَةٌ طبيعية فيها ملازمة لها على الدوام. ولكن التواصل بين الحضارات والثقافات لا يجري على وتيرة واحدة: إذ قد ينساب انسياباً هادئاً ناعماً في بعض الأحيان والمراحل، بينما يتعثر مجراه أو يتقطع في سواها، وذلك حسبما قد يتفق من توافر عوامل مُعينة على التواصل ميسِّرة لانسيابه، أو ما قد يقع على عكس ذلك من حدوث عوامل مُعيقةٍ لمجراه مبطِّئةٍ لمسيرته. وهذا ما ينـــتقل البحث للنظر في بعض جوانبه الآن.

العوامل المعينة على التواصل الثقافي والمعوّقة لمجراه: نظرة إجمالية

وكما قد يُتَوقّع فإن أهم المعينات والمعوّقات إنما تتصَّل اتصالاً مباشراً بالعقائد الدينية ومناهج النظر الكونية التي تـــتشكل الحضارات والثقافات في إطارها، وتستمد منها منظومات قيمها وأنماط السلوك الهادية لأفرادها ومجتمعاتها، كما تقدم. ومن أمثلة ذلك أنه بينما تحصر الهندوسية واليهودية خطابيهما في شعوب معينة دون غيرها، تُلْفي المسيحيةَ والإسلامَ يتوجهان بخطابيهما إلى البشرية عامة، ودون أي تميـــيز في ذلك بين الأعراق أو المراتب الاجتماعية، كما هو الحال في اليهودية التي يُميِّز فيها بين اليهود والأغيار، أو في الهندوسية حيث يكون التمييز بين طبقات البراهمة والمنبوذين وغيرهم من فئات. فغني عن

[1] يراجع في ذلك – مثلاً – كتاب الأستاذين نصر وليمان المذكور أعلاه.

القول إذن أن المسيحية والإسلام – بما تتصفان به من رحابة وسعة – أعون على التواصل بين شعوب العالم وثقافاته من الديانتين الهندوسية واليهودية.

هذا وقد كانت من أبرز السمات التي مازت الحضارة الإسلامية عن نظيرتها المسيحية الغربية فيما سبق العصر الحديث من تاريخهما، كما لاحظ المستشرق الألماني آدم ميتز منذ عقود من الزمان، أنها (الحضارة الإسلامية) كانت تشمل بين جنباتها أعداداً كبيرة من غير المسلمين (يهودًا، ومسيحيين، وصابئة، ومجوساً، إلخ)، وأن هؤلاء كانوا يعيشون، كما قال ميتز "جنبا إلى جنب (مع المسلمين)، وفي جو من التسامح لم يعرف مثله أبداً في أوربا" أثناء تلك العهود.[1]

على أن التسامح الرحب الذي ماز الحضارة الإسلامية عن رصيفتها المسيحية الغربية إذ ذاك لم يكن أمراً مجهولاً عند الغربيين حتى اكتشفه المستشرق الكبير. فالثابت المعلوم أن عدداً معتبراً من كبار العلماء والمفكرين الأوربيين قد وقفوا عليه قبل ذلك بمئات السنين، فأشاد به بعضهم وتعجَّب منه آخرون.

ومن أبرز أولئك في القرن السابع عشر الفيلسوف الأنجليزي الشهير جون لوك الذي يعدُّ – بحق– من أهم وأعظم من وضعوا أسس الفكر الليبرالي الغربي الحديث، فقد حثّ معاصريه الأوربيين عامة والإنجليز منهم خاصة على الاقتداء بالمسلمين في تسامحهم مع مَن خالفهم في أمر العقيدة والدين وتمكينهم – على تباين مذاهبهم وطوائفهم – من ممارسة دياناتهم في حرية تامة، ودون أي تدخل من أحد. ثم استطرد – في رسالته الشهيرة عن التسامح – مشيراً إلى المفارقة المتمثلة في أن الأرمن وأتباع كالفن، مثلاً، يستطيعون أن يقيموا شعائرهم ويمارسوا دينهم في إسطنبول (عاصمة العثمانيين ومقر سلاطينهم) آمنين، بينما يحرمون من ذلك في أوربا المسيحية، معقّباً بقوله: إن "الأتراك ليضحكون ساخرين متعجبين من القسوة المتناهية التي بها يعامل المسيحيون (إخوانهم) المسيحيين".[2]

---

1 Adam Mez: *The Renaissance of Islam*. London, 1937, p 32.

2 John Locke: *A Letter Concerning Tolerance*, in *The Works of John Locke* New Edition, vol. VI (Aalan, Germany, Scientia Verlag), 1963, p18.

ولكن الحديث في هذا الموضوع طويل يستلزم معالجة مستقلة،كما تمّ وحدث في مناسبات سابقة،[1] أو كما قد يتاح، على نطاق أوسع، في مقبل الأيام والسنين، إن شاء الله تعالى.

ولنشر الآن إشارة وجيزة كذلك إلى سمة أخرى مازت الحضارة الإسلامية عن نظيرتها الغربية، وأسهمت بسببها إسهاماً كبيراً في دعم التواصل بين الشعوب والثقافات في كثير من أنحاء العالم — وما زالت تفعل حتى اليوم لاسيما في القارتين الآسيوية والأفريقية. تلك السمة هي أن المسلمين (خلافاً للمبشِّرين بمختلف الديانات والمذاهب الأخرى) قد درجوا، منذ عهد البعثة المحمدية، على الاختلاط والتزاوج مع مَنْ جاورهم من الأمم والشعوب: وذلك انطلاقاً من جملة مبادئ جوهرية في تعاليم الإسلام: من بينها الإيمان بوحدة الإنسانية، وبالمساواة بين الناس، وبضرورة التعارف والتعاون بينهم، حتى وإن اختلفوا في الأعراق والديانات. من ذلك ما جاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوْا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (الحجرات: 13)، وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوْا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى...﴾ (المائدة: 2)، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيْ مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوْا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيْعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ﴾ (المائدة: 47).

ومن ثم فإن الفاتحين الأولين من العرب المسلمين لم ينصبوا أنفسهم طبقة حاكمة بعيدة عن الناس مستعلية عليهم (كما فعل غيرهم من الفاتحين قبلهم وبعدهم)،[2] بل اختلطوا بهم وتزاوجوا معهم - كما فعلوا مع الفرس والكرد والترك والهنود والملايو والصينيين وما

وقد اقتطفت عبارة جون لوك في كتاب: Muddathir ‘Abd al-Rahim: *The Human Rights Tradition in Islam* الذي نشر في كل من لندن وكونِّيتيكت الأمريكية عام 2005. ص5.

[1] انظر كتاب مدثر عبد الرحيم المذكور أعلاه — خاصة المقدمة ثم الفصلين الأول والثالث.

[2] ولعل من أجود الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع كتاب Edward Said: *Orientalism: Western Conceptions of the Orient,* London, 1978 and 1995. Also: *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*, London, 1981.

إلى ذلك من الشعوب الآسيوية، وكما كان شأنهم أيضاً في إفريقيا مع السكان الأصليين من القبط والنوبة والزنج والأمازيغ وغيرهم. وتبع سُنةَ العرب المسلمين في ذلك مَنْ آمن بالإسلام بعدهم من كل أولئك، سواءً أظلوا في أوطانهم الأولى، أم أرتحلوا عنها حيثما استقروا في مشارق الأرض ومغاربها، بما في ذلك، منذ الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة الأمريكية ومختلف أقطار أوربا الغربية، حيث أصبح الإسلام الديانة الثانية في عدد معتبر منها،[1] كما نشأت ثمة أجيال جديدة من المسلمين الأوربيين والأمريكيين آباؤهم معظم الأحيان من الأفارقة أو الأتراك أو العرب أو الهنود ... إلخ وأمهاتهم فرنسيات أو ألمانيات أو إسكندنافيات أو أمريكيات إلى غير ذلك من مختلف الأجناس والقوميات.

وكما قد يُتَوقع – نظراً لكون العربية هي لغة القرآن، ونظراً كذلك لمكانة العرب في تاريخ الإسلام والمسلمين – فقد استعربت كثير من الشعوب بعد إسلامها عبر الحقب والسنين، لاسيما في غربي آسيا وشمال وشرقي إفريقيا.

على أن التحول اللُّغوي والثقافي – بطبيعة الحال – لم يجر في اتجاه واحد على الدوام، بل حدث عكس ما سبق به الذكر من استعراب شعوب أسلمت ثم استعربت: حيث استقرت جماعات من العرب المهاجرين في عديد من الأقطار الآسيوية والإفريقية، ثم ما لبثت أن نسيت لغتها العربية واتخذت بدلاً عنها لغات وثقافات محلية مختلفة: كما هو مشاهد معلوم في ماليزيا وإندونسيا وفي كثير من أنحاء شبه القارة الهندية وإيران، ثم في عدد من الأقطار الإفريقية كالمغرب والسودان وشرق القارة وزنجبار إذ تأفرق كثير من العرب وغيرهم من المهاجرين المسلمين باندماجهم في السكان المحليين واتخاذهم الأمازيغية أو الكنـــزية أو السواحيلية لغات لهم عوضاً عن العربية وغيرها من كبريات اللغات التاريخية الأخرى بين المسلمين وعلى رأسها الفارسية.

---

[1] انظر في ذلك مثلاً المقدمة التي كتبها John Esposito للكتاب الذي حررته Yvonne Yazbeck Haddad: *Muslims in the West: From Soujourners To Citizens,* الذي صدر في كل من أكسفورد ونيويورك عام 2002.

هذا وقد تولدت بين كثير من الشعوب التي أسلمت دون أن تستعرب لغاتٌ جديدة، امتزجت فيها العربية والفارسية بلغات محلية: أشهرها وأوسعها انتشاراً في آسيا الأوردية، ونظيرتها في شرق إفريقيا وزنجبار السواحيلية.

وكما هو معلوم فقد كتبت كثير من اللغات الإسلامية الكبرى (كالفارسية والتركية) إضافة لرصيفاتها المولّدة (كالأوردية والسواحيلية)، ثم كبريات اللغات الإسلامية الإقليمية غير المولّدة واسعة الانتشار في مختلف أنحاء القارتين الإفريقية والآسيوية (كالملايوية والهوسوية)، وظلت تكتب قروناً عديدة بالحروف العربية، بخطوطها المعروفة أو المعدّلة بما يناسب حاجات المتحدثين بها. ونظراً لذلك، ولشيوع كلمات وعبارات عربية كثيرة فيها، فربما جاز القول بأن الصلة بين العربية وتلك اللغات جميعها، يمكن أن تقارن أو تُشبَّه بالصلة القائمة بين اليونانية واللاتينية القديمتين وعدد من اللغات الأوربية الحديثة في المجموعتين الأنجلوسكسونية الشمالية واللاتينية الجنوبية جميعاً، مع فارق واضح مهم، وهو أن العربية لغة حية نابضة بالحياة، بينما تعتبر اليونانية واللاتينية من اللغات التي عفى عليها الزمن، إلا بين الدارسين المتخصصّين لاهوتيـــين وغير لا هوتيين.

وخلاصة القول في هذا الجانب من الموضوع أن الحضارة الإسلامية – لاسيما كما تبلورت واستقرت في إطار الثقافة العربية الماثلة في كل من آسيا الغربية والقارة الإفريقية الشمالية والشمالية الشرقية – من أكثر الحضارات التاريخية تيسيراً للتواصل بين الشعوب والثقافات، وأن عطاءها في ذلك الباب – رغم كثير من العثرات والنكسات – مازال عطاءً ثراً سخيا. وقد حدا ذلك برجل مثل الأستاذ مونتجمري واط للقول (في سياق تأملاته حول نهج الإسلام في تحقيق الوحدة مع التنوع) بأن دراسة تجربة الإسلام في التوحيد بين الشعوب والثقافات المختلفة من شأنها الكشف عن السبل التي يرجّح أن تتحقق بها وحدة الإنسانية على صعيد العالم في المستقبل، وأنها ربما مكّنت الساعين لتحقيق تلك الغاية من صياغة الوسائل التي بها تصبح البشرية قادرة على الإسهام إسهاماً واعياً في تلكم العملية.[1]

[1] W. M. Watt: *Islam and the Integration of Society*, London, 1961, p1.

آفاق المستقبل: كلمات ختامية

ربما رجح لدى بعض مَنْ قد يتطلّعون لاستشراف آفاق المستقبل في ضوء ما تقدم به الذكر من حقائق وتحليلات- لاسيما فيما يتعلق بتنوع الثقافات والعوامل الطبيعية التي تؤثّر في تشكيلها وتشكيل الحضارات التي تنشأ الثقافات وتتبلور في أطرها - أن التواصل الثقافي بين مختلف الشعوب والجماعات وإن تغيرت صوره وتبدلت أساليبه ستتابع حلقاته في مقبل الأيام على نفس الوتيرة التي ظلت تتعاقب بها فيما مضى من أزمان حتى الآن: وذلك افتراضاً منهم بأن اطرِّاد سلوك البشر وجريان الطبيعة وفق أنماط أو قوانين ثابتة يقضي بأن يكون المستقبل - كما قيل - أشبه بالماضي من الماء بالماء.

ولكن - ومع تمام التسليم بالمعروف المألوف من اطرِّاد في قوانين الطبيعة وفي طبائع البشر وأنماط السلوك الإنساني وسنن الاجتماع البشري وما إلى ذلك من مقولات هي، في واقع الأمر، من البدهيات والمسلّمات - فإن من اللاّزم أن نذكر أيضاً ما سبقت الإشارة إليه فيما يتصل بحدوث التجديد وقيام النهضات، ووعي الإنسان وحريته واختياره في صياغة الحضارات والثقافات، وأن هذه العناصر الثلاثة (الوعي، والحرية، والإرادة الإنسانية) وإن لم تكن مطلقة غير محدودة، هي عوامل مهمة في صنع التاريخ، وشروط أساسية في نشأة الحضارات والثقافات، ثم في تطورها صعوداً وهبوطاً ونهوضاً أو سقوطاً، بحيث يمكننا القول - دون تزيُّد أو مبالغة - إننا إن أسقطنا وعي الإنسان وحريته وقدرته على الاختيار من الحساب فكأنما أسقطنا الحضارة والثقافة جميعاً: فنكون قد حققنا بذلك "نهاية التاريخ"، ولو على شاكلة مختلفة عمّا تصوره هيجل أو فوكوياما. وعندئذ يصبح التواصل الثقافي أمراً غير ذي موضوع ألبتة. والعكس بالعكس؛ فالحضارة في جوهرها وحقيقة أمرها هي نتاج الفعل الواعي للإنسان في الطبيعة والتاريخ، وثمرة حريته واختياره بين ما قد يتاح له في مختلف مناحي الحياة من بدائل. وغني عن القول أن شيئاً من ذلك لا يتم اعتباطاً أو بمناطحة قوانين الطبيعة والحياة، وإنما بفهمها وإدراك القواعد التي تتركب منها وتسير عليها، ومن ثم تطويعها لخدمة الإنسان وما قد يختاره - أو يعرض عن اختياره - من أهداف في ضوء ما

يتاح أو يتيسّر له من الاستنارة الروحية والاهتداء بالقيم الخلقية السامية، فضلاً، بطبيعة الحال، عما قد يكون لديه من معرفة علمية وبراعة فنية أو تقنية.

ويفضي بنا الحديث عن تطويع الطبيعة و القدرة الفنية على استخدامها من جهة، ثم عن الاستنارة الروحية والقيم الأخلاقية (أو افتقادهما) من جهة أخرى، إلى نقطة ثانية بالغة الأهمية. وتدور هذه النقطة حول ضرورة تقدير المرحلة التاريخية التي بلغتها الإنسانية اليوم، ومدى اتِّساقها مع وتيرة التطور فيما سبقها من مراحل التاريخ، أو شذوذها عنها ومخالفتها لها. ونقطة الارتكاز في هذا الموضوع الواسع المعقَّد هي أن قدرة الإنسان على التحكم في الطبيعة (لا سيما فيما يخص تطوير أسلحة الدمار الشامل نووية وغير نووية، والهندسة الجينية – وقد أثارت الشكوكَ والمخاوفَ كثيـــر من تطبيقاتها العملية، ثم فيما يتصل بتزايد استهلاك البشر للطاقة والغابات وسائر الموارد الطبيعية)، قد بلغت درجة غير مسبوقة في تاريخ البشرية، أصبح في مقدور الإنسان بناءً عليها تدميرُ البيئة في مختلف أنحاء الكرة الأرضية تدميراً كاملاً، ومن ثم محو الحياة الإنسانية وغير الإنسانية من على سطح هذا الكوكب الأرضي الصغير. فهل يتأتى للبشرية من الحكمة والمسؤولية الخلقية ما يجنّبها (ويجنّب ما يساكنها على سطح الأرض من مخلوقات حية) ذلك المصير المأساوي؟

أحسب أن هذا مفترق طرق لم يسبق للإنسانية أن وقفت على مثله فيما سلف من تاريخها، وأنها – بالتالي – لم تكن أشدَّ حاجة للحكمة وتقدير المسؤولية وسلامة الضمير والوجدان في أي يوم من الأيام مما هي عليه الآن.